

النص التراثي في ضوء القراءة المعاصرة

قراءة في نصوص أبي حيان التوحيدي-

*Heritage text in the light of contemporary reading- reading in the texts of
Abu Hayyan al-Tawhidi*

لبنى بوغانان/ طالبة دكتوراه

د. مبروك دربري

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة محمد لين دباغين - سطيف (الجزائر)

مخبر المثقافة العربية في الأدب ونقده - جامعة سطيف 2

l.bouanane@univ-setif2.dz

تاريخ القبول: 2020 / 02/07

تاريخ الإيداع: 2019 / 10/17

ملخص المقال :

يظل كل نص باعتباره كتابة بحاجة إلى قراءة ما، وباعتباره ظاهرة تداولية وثيقة الصلة بسياق إنتاجها ومرجعياتها التاريخية والثقافية والسوسولوجية، يكون مدعاة لتحريك أفق المتلقي وتشريع أفق التأويل، لذا فإن تلقي النصوص وانفتاحها على القراءة تجعل منها نصوصا خالدة تتجدد وتثمر مع كل قراءة، بخاصة بعد خضوع التراث النقدي العربي لمناهج وآليات جديدة فرضها المنجز النقدي الغربي الحديث، عملت على تفكيك الرموز اللغوية للنص التراثي وشحنه بمفاهيم حديثة انتقلت بالنص من معناه الإبداعي إلى التصور المعاصر للقراءة، ولعل النص التوحيدي يمثل أحد النصوص الأكثر ثراء وتنوعا لما يتميز به هذا النص من لغة موسوعية شمولية تستدعي قراءات متعددة أيضا الأمر الذي يضعنا أمام إشكالية مفادها: هل يختلف فهم ومقاصد النص باختلاف السياق؟ كيف نخضع النص التراثي لقراءتنا الراهنة؟ كيف يتفاعل القارئ المعاصر في سياقه الثقافي الراهن مع نص ولّدته سياقات ثقافية مختلفة؟ وما نتيجة هذا الجدل في تأويل المحمول الدلالي له ؟

الكلمات المفتاحية: النص التراثي، الفهم المعاصر، أبي حيان التوحيدي، سياق الإنتاج، سياق التلقي.

Abstract:

Each text as a writing needs to be read, and as a pragmatic phenomenon closely related in its production to its historical, cultural and social references, is a reason for moving the horizon of interpretation. so, Receiving texts and its opening to reading made them immortal texts, renewing and fruiting with each reading, especially when the Arab critical heritage used new methods and mechanisms imposed by the modern Western critical achievement, worked to dismantle the linguistic symbols of the heritage text and charged with modernist concepts moved the text from the creative meaning to the contemporary vision of reading. Perhaps the monotheistic text is one of the richest and most varied texts. As its language is encyclopedic and global calls for multiple readings, here we ask the following question: do understanding and the purposes of the text differ according to different context? How do we submit the heritage text to our current readings? How does the contemporary reader in his current cultural context interact with a text generated by different cultural contexts? What is the result of this controversy in the interpretation of its semantic charge?

Key Words: The Heritage Text, Contemporary Understanding, Abiحيان al-tawhidi, the context of production, the context of receiv

مقدمة :

تعكس النصوص الأدبية التراثية بصفاتها مدونات تمظهرات نصية الخطاب وتفاعل علاقاته الداخلية مع السياق الثقافي، الذي أطر الحياة العامة والخاصة لإنتاج النص الذي هو ليس سوى رسالة اجتماعية تفاعلية بين الأديب وجمهور المتلقين، فعملية تلقي النص الأدبي تتم في إطار تفاعل مجموعة من العلاقات الثلاثية هي "الأديب والنص والمتلقي" إذ لا يمكن أن نحقق الغاية الفنية للنص بإهمال ركيزتيه (الكاتب// القارئ).

وقد قام هذا البحث على مقارنة جاءت تأكيداً على وجود أبعاد جديدة للتأليف والكتابة والإبداع، وتكشف عن نصوص لا تزال في انتظار استنطاقها وتأويل دلالاتها وتفكيك شفراتها اللغوية، والنص التوحيدي لاحتوائه على ضروب فنية وتراكيب لغوية فريدة، كان له وقع كبير على المتلقين على اختلاف زمانهم، فقد تميز أدبه بتفرد في علاقته بالقراء وشد إليه الانتباه وأثار حوله الكثير من الجدل في زمانه ولا يزال الاهتمام به مستمرا حتى يومنا هذا، ويبدو أن العلاقة المتواترة بين التوحيدي وقراءه قابلة لأن تتكون منها مادة الآثار الأدبية التي تترجم صلتها بجمهورها، فكل قراءة هي تأويل وإفراغ لشحونات نصية مخبوءة وانتقال بالفهم من سياقه التاريخي وأفق إنتاجه إلى أفق جديد خاضع لسياق التلقي.

أ: فعل القراءة والتلقي

عرف النص الأدبي مقاربات ومناهج نقدية عديدة عملت على تأويله واستجوابه وإضاءة زواياه المعتمة فوقفت تارة عند الظروف والسياقات الخارجية، واتخذت منها ركائز لفهم النص وولوج عوالمه، لتقف تارة أخرى عند المناهج البنيوية التي ثارت على ما سبقها داعية إلى موت المؤلف والعناية بالنص كبنية لغوية مغلقة ومستقلة، تقوم على ثنائية الهدم والبناء بعيدة في ذلك عن كل إطار خارجي، مما جعل العنصر الثالث من العملية الإبداعية "المتلقي" مهمشا ومغيبا لفترة طويلة من الزمن، ليعود إليه الاعتبار أخيرا مع مدرسة كونستانس الألمانية التي جاءت لترتكز على علاقة النص بالقارئ وإعادة بثه وكتابته وفق زاوية مغايرة تفند علاقات الإنتاج والاستهلاك التقليدية.

استقطبت نظرية القراءة والتلقي اهتمام النقاد والباحثين في الأدب، فحاولوا فهمها ومعرفة مرجعياتها وأبعادها وطرائقها في معالجة النص، فاختلفت تسمياتها باختلاف فهم الباحثين لها فنجد أن هناك من أطلق عليها "نظرية الاستقبال" ومن سماها بنظرية التجاوب أو الاستجابة وكلها مصطلحات تدور في فلك التفاعل بين النص وبين القارئ.

وإذا أردنا أن نعرف مفهوم التلقي قلنا بأنه "البحث عن قنوات التواصل، بمقدار ما هو بحث عن ملء الفراغات وكسر أفق التوقع إنه تعريف آخر للجمايلية، يعنى بنشاطات الإنتاج ومكونات النص، فالتلقي هو فاعلية بناء وإنتاج، بمقدار ما هو مفعولية قراءة والقارئ يسعى إلى إعادة تركيب النص وإغنائه بفهم.¹" أي أن المتلقي اليوم أصبح شريكا في إنتاج الأثر الأدبي فهو يعمل على، تفكيك عناصره وفق تراكمات ثقافية مخزنة تهيئ لميلاد مفاهيم وأبعاد جديدة للأثر نفسه يتخذ من بياضات النص مساحة لملء فراغاته ومنطلقا لتحقيق وتحيين جمالياته.

-فعل التلقي عند ياوس: والباحث عن مفهوم التلقي أو الاستقبال عند "ياوس" يجده "ذو معنى مزدوجا" يشمل معا الاستقبال أو التملك والتبادل (...). فالتلقي بمفهومه الجمالي ينطوي على، بعدين منفعل وفاعل في آن واحد، إنه عملية ذات وجهين أحدهما الأثر الذي ينتجه العمل في القارئ والآخر كيفية استقبال القارئ لهذا العمل أو استجابة له²

إذن فالعلاقة التي تجمع بين النص والقارئ هي علاقة تأثير وتأثر، ساهمت مرحلة القراءة في إحداث هذا التفاعل الذي كان محركه بالدرجة الأولى لغة النص، فالتلقي لا يحدث إلا بترجمة تراكيب هذه اللغة ومطاوعتها وكشف مخبوءها الذي يحول بين القارئ والفهم الحقيقي للنص.

-**فعل القراءة عند إيزر:** في نظره القراءة ليست تذويتا **internalization** مباشرا لأنها ليست مسارا أحادي الاتجاه بل تفاعلا ديناميا بين النص والقارئ، يسعى إلى إيجاد وسائل لوصف عملية القراءة التي تعتمد على القارئ بقدر ما تعتمد على النص³، إن ما يدعوا إليه إيزر جاء مكملا لمقولات ياوز فكلاهما ركز على القارئ ونوعية استجابته وتلقيه للنص وعلاقته ببنياته، فمهمة القارئ الرئيسية هي فهم النص واستخراج معانيه وتأويلها وفقا لخبراته ومدخراته المعرفية والثقافية.

إذا كانت مقولات القراءة والتلقي لم تر النور إلا مع المدرسة الألمانية والأمريكية وبعد دراسات جادة قام بتمحيصها مؤسسوها وعلى رأسهم ياوز وإيزر، فإننا نجد هذه المقولات ماثلة في تراثنا العربي القديم وإن لم تكن تحمل نفس المسميات فإنها، تمارس نفس الوظيفة وتحقق نفس الفعالية فمقولات جمالية التلقي ليست بغريبة ولا بدخيلة على الفكر العربي القديم فهي، مصطلحات التصقت بالدرس التواصلي البلاغي منذ بداياته الأولى عندما أقر بعبارته الشهيرة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" وغير ذلك من مصطلحاتها التي، نجدها حاضرة في فكر الجرجاني وابن قتيبة والجاحظ والتوحيدي وغيرهم من نقاد وبلاغيين.

-فعل القراءة والتلقي عند النقاد العرب المحدثين :

أما في الدرس النقدي العربي الحديث فنجد أن نظرية القراءة والتلقي بعد ترجمة أهم مصنفاتها إلى العربية، امتدت أسسها واتسعت لتؤثر بشكل بالغ في النقاد العرب المحدثين الذين اهتموا بدراسة هذه النظرية ونقدها، معتمدين في ذلك على مرجعياتهم التراثية ومتخذين من آليات وتقنيات التلقي وسيلة للوصول إلى مقاصد النص التراثي ومنابعه، ومن بين الدراسات التي كتبت في هذا المجال نجد: كتاب "المتني والتجربة الجمالية عند العرب" لحسين الواد، كتاب "التلقي والتأويل" لمحمد مفتاح، كتاب "القراءة وتوليد الدلالة" لحميد لحميداني، وكتاب شكري المبخوت "جمالية الألفة -النص ومتقبله في التراث النقدي- وغير ذلك من الدراسات الحديثة التي ارتكزت على التلقي كإجراء منهجي.

ولقد أدلى الناقد العربي "محمد عزام" بدلوه في حديثه عن نظرية التلقي وعن العلاقة القائمة بين النص والمتلقي فيقول "مسألة العلاقة بين القارئ والنص، أو بالأحرى مسألة العلاقة بين ما يمكن أن يقرأ في النص، وبين ما هو مقروء فيه فعلا"⁴ علاقة تفاعلية يتجاوزها طرفان مركزيان يؤثر كل واحد منهما في الآخر، ويقول في موضع آخر "إن نظام النص يعطي صورة عن (كليته) والعلاقة بين الدال والمدلول ليست وحيدة الجانب، فقارئ النص يمكن أن ينتج الدلالة التي لا تعتمد على النص وحده، لأن النص في ذاته لا يمكن أن يتصف بالثبات، أو

ينحصر في مدلول واحد جامد، وإنما يمكن أن يتحول إلى شبكة من المستويات المتداخلة والمتفاعلة⁵ أي النص ليس المسؤول الوحيد عن الدلالة بل تتدخل عوامل عديدة يمكن أن تندرج في السياق التاريخي للنص لتعين القارئ على إنتاج المعاني والدلالات، فالقارئ يحين النص أثناء القراءة فيمنحه دلالة جديدة ضمن السياقات السوسيوثقافية لفعل القراءة، وفي أحيان كثيرة نجد الكاتب يستهدف قارئه بين جمهور المتلقين والقارئ يبحث عن كاتبه وسط المبدعين، إلا أن هذه العلاقة بينهما غير مضمونة فكثيرا ما يكون المؤلف أو المنتج مناورا والمتلقي زئبقيا.

وفيما يخص مفهوم التلقي كمصطلح عند النقاد العرب المحدثين نجده يختلف عن المفاهيم الغربية، لأن انتقال المفهوم من نص إلى نص آخر أحدث فوضى مصطلحية، فتعريب التلقي صادف مضامين مختلفة تحكمت في إنتاجها الخلفيات والمرجعيات الفكرية، ف"عبدة عبود" مثلا أثناء ترجمته لهذه النظرية نجده يفضل استخدام مصطلح "استقبال" بدل "التلقي"، وحميد لحميداني يستعمل مصطلح القراءة، وغير ذلك من مصطلحات النظرية التي تبدلت واختلفت صيغها بفعل النقل والترجمة.

يقول محمد مبارك "الادراك والتحقق والتلقي والوجود بالفعل مفاهيم متقاربة إن لم تكن مترادفة، وقد توجد مسميات آخر يضمها السجل الفلسفي والفكري العام تلتقي مع هذه المفاهيم وتشكل معها وحدة دلالية كبيرة (...)" إن التحقق الجمالي فعالية تهم القارئ، المتلقي بالمعنى الأوسع، والقارئ محكوم بمواضعات عصره ويسمى بعض النقاد المحدثين سنن العصر، وأن هذه السنن لها تأثير على الموضوع الجمالي المتحقق بواسطة التلقي والذي يهدف إلى التفاعل مع العمل الأدبي⁶ فيدرك القارئ لفحوى النص هو الذي يحقق التفاعل بين النص والقارئ ويصل به إلى الفهم، ومحمد المبارك عندما جمع بين هذه المفاهيم أراد أن لا يميز بين المفهوم الفني والموضوع الجمالي باعتبارهما معادلة أساسها (النص والتلقي)، لذا فإن القبض على مصطلح بعينه يعبر عن لب هذه النظرية يعد أمرا صعبا نظرا لإشكالية أكبر تندرج في أزمة التعدد المصطلحي، و"لا شك أن الفكر النقدي العربي في جملته قديما وحديثا ينطوي على رؤى وأفكار يمكن أن تنتظم حول نشاط التلقي الأدبي أو الفني، وأن تُنمى لتصنع في النهاية إطارا نظريا خاصا يكون بمثابة تطوير أو إضافة إلى النظرية العامة"⁷

فعلى الرغم من الشروط التي قام النقد بإحصائها "والتي تعني المتلقي في توجهه نحو فهم النص وفضلا على المحسنات ومصادر الإغراء والاستمالة، فإن النقد ظل مواصلا جهده في سبيل غاية أساسية هي إخراج المتلقي من حالة الاستسلام للنص إلى الحوار معه، فهو

المفكر في جوهره الباحث عن قيمة الجمالية، فالمتلقي شخصية إيجابية تسهم في بناء النصوص الأدبية وترسم طريق تطورها"⁸

فالمتلقي في قراءته للنص يمارس دور المبدع والناقد في الوقت نفسه، محاولاً الإفصاح والكشف عن مجموعة القيم الجمالية المستترة تحت الصيغ اللغوية والبلاغية، وهكذا أصبحت للقارئ سلطة على النص تعينه على التأويل وتوجيه المعاني وإخراجها لذا نجد "نظرية التلقي" أو ما نستطيع تسميتها "باستجابة القارئ" تركز خاصة على دور القارئ وأهميته في فهم النص وتدوقه، وذلك لفعاليتها في إنتاج المعاني وإعمال تماثلاته الذاتية والذهنية أثناء قراءته النص، متأثراً بلغة النص وأساليبها وبنياتها وتقنياتها التي تعينه على توظيف خياله في ملء ثغرات وفراغات النص وتحديد معانيه، أما من حيث التذوق الفني للنص فذلك أساساً يعتمد على جمهور المتلقين والقراء على اختلاف ثقافتهم وأذواقهم، ومما لا ريب فيه أن طبيعة الاستجابة الفنية ودرجتها ستختلف من قارئ إلى آخر.

هذا الاختلاف والتنوع في القراء يقابله بالضرورة تنوع في النصوص وفي الآثار الأدبية التي تمثل صرحاً حراً لإنتاج متلقيه، بحسب مرجعياتهم وخلفياتهم الفكرية، وللأهمية البالغة التي يحظى بها القارئ وجب علينا الإشارة، إلى أن القراء نوعين كما ذكر "إيزر" حينما تحدث عن القراء ومفهوم القارئ الضمني، بحيث يوجد قارئ فعلي يطلع حقيقة على النص وقارئ ضمني (صوري/ مثالي) يفترضه المبدع أثناء كتابته للنص، وهو القارئ الذي يتمثله النص بذاته.⁹

2: المصادر التراثية والسياق الثقافي للنص التوحيدي

نهل أبو حيان التوحيدي من مصادر تراثية كثيرة ومتعددة، نجد أصولها الواضحة عند المفكرين العرب القدماء، من نقاد وبلاغيين ومتصوفة وأدباء وفلاسفة استفادوا من مختلف الثقافات بما في ذلك التأثير بالروافد اليونانية والثقافة الأرسطية، التي أُلقت بظلالها على مختلف فنون القرن الرابع الهجري، هذا القرن الذي مثل الحاضن الأول للثقافة التوحيدية التي كتبت بأدواته وعبرت عن قضاياها، فالعمل الأدبي مزيج من العلاقات والعناصر الداخلية بحيث لا يمكن أن يحقق فاعليته الإبداعية وغايته الفنية بعيداً عن سياقاته ومرجعياته التي أثرت بصورة عامة أو خاصة في إنتاج مفاهيمه ودلالاته.

ساهمت ممارسة التوحيدي لحرفة الوراقة في إثراء رصيده المعرفي وذلك لحرصه الدائم على مجالسة العلماء وأهل الأدب وتدوين آرائهم ومناقشتهم، مما عاد عليه بثقافة

موسوعية أفادت من مختلف صنوف العلم والمعرفة، ومن بين الأساتذة والمعلمين الذين كان لهم بالغ الأثر في فكر التوحيدي وشخصيته العلمية، نجد أبو سعيد السيرافي الذي أخذ عنه النحو وأسرار التصوف، وأبو زكريا بن يحيى بن عدي المنطقي الذي تأثر بفلسفته، وأخذ اللغة وعلم الكلام عن أستاذه علي بن عيسى الرماني، ولا ننسى أبو حامد المرورودي الذي أخذ عنه علوم الفقه وغيرهم كثير، وقد أورد أخبارهم في متون آثاره المختلفة.¹⁰

ومن بين العلماء الذين استفاد من خبراتهم أيضا نجد "أبو سليمان السجستاني المنطقي (...)" وهو من كبار الفلاسفة وعلماء المنطق واللغة وصاحب أنظار في الأدب والشعر، وكان التوحيدي يكثر من ملازمته حتى عدّه القفطي "أحد أصحابه المعتصمين به" ولا أدل على ذلك من كتاب التوحيدي المسمى بالمقابسات يشتمل الجزء الأكبر منه على أحاديث ومناقشات جدلية وفلسفية لأبي سليمان وتلاميذه¹¹

وبراعة أستاذه السجستاني في فنون الفلسفة والجدل، تنم عن تأثر واضح بطرق وأساليب المصادر اليونانية، مما جعل فكر التوحيدي ثريا ومتنوعا كما أن "دراسة التوحيدي على يد أدباء وعلماء أفذاذ، كان لها أثرها البعيد في نقده والواقع أنه كثيرا، ما يورد مقولات لهم كأبي عابد الكرخي والعروضي والأنصاري وابن هندو الكاتب وابن نباتة والسيرافي وأبي سليمان المنطقي، ولهذا الأخير أثر كبير وقوي في آراءه الأدبية أو غيرها إذ يتبعه في الكثير من المسائل التي، يوردها عنه ويثبتها كما هي دون نقد أو تمحيص وهو في ذلك شبيه بالصدى الذي يرجع الصوت كحديثه عن البلاغة وأنواعها"¹²

-الحياة الثقافية للقرن الرابع الهجري

اتسم القرن الرابع الهجري بحركة علمية نشيطة، يشهد لها كل من تتبع تاريخ تلك المرحلة التي مزجت بين عوامل ثقافية عديدة، من بينها قلق الأوضاع السياسية وتردي الحال الاجتماعية من جهة، ونشاط الإبداع والتأليف من جهة أخرى، وليس غريبا أن تزدهر العلوم والفنون في ظل هذه الأوضاع، لأن أكثر ما يجعل الإنسان يعبر و يخرج عن مسكوته مشاعر الغربة والألم والافتقار، فالقرن الرابع الهجري عرف تحولات طارئة ومصائر محتومة " فمن بين الظواهر السائدة في هذه الفترة، تفشي الإرهاب السياسي والاضطهاد المذهبي والصراع على السلطة، الذي وصل حد التصفية الجسدية كان ضحاياها الأوائل الوزراء نظرا للمكاند السياسية واللهث وراء خدمة المصالح وانفجارات الطبقيّة"¹³

وللعامل السياسي أثره الكبير في توجيه الفكر والأدب خاصة بعد النزاعات السياسية التي عرفتها الدولة العباسية على الحكم وانقسامها إلى دويلات وأحزاب، مما جعل الخلفاء والوزراء يحرصون على إحاطة الجهاز المؤسسي بمتقنين متمكنين لإعانتهم على خدمة مصالح السلطة والدفاع عن إرادتها، وقد مثل ذلك أحد سمات النهضة الثقافية للعصر بحيث، اهتم " كبار القوم بالعلماء والمتقنين ورعايتهم لهذه الفئة ويلحظ، أن المجالس العلمية والأدبية تعددت وكثرت في دويلات الإسلام فكان لكل خليفة وأمير ووزير مجلس علمي خاص به، يجمع فيه العلماء والأدباء والفقهاء والشعراء يتحاورون ويتناقشون في تلك المجالس"¹⁴

وقد اتصل أبو حيان هو الآخر بمجالس الوزراء، مثل مجلس ابن العميد والصاحب بن عباد فناظر وناقش وتعرف على كثير من علماء وأدباء عصره، بحيث طمح أن يجد ضلالتة في هذا الاتصال بمراكز السلطة والتقرب من الوزراء، إلا أن رغباته وأمانيه قوبلت بالخذلان لينتهي به الأمر منبوذاً من قبل هذه الفئة بالذات التي كان ينتظر منها أن تكون خلاصه.

إن الحديث عن السياق الثقافي متسع اتساع المصطلح نفسه، لذا يصعب علينا أن نحكم قبضتنا على مفاهيمه وأن نستعرض جميع المظاهر الثقافية، التي حاكت فترة القرن الرابع الهجري وإنما نحاول من خلال، تتبعنا لسياق إنتاج النص التوحيدي والنظر له على أنه رسالة تواصل اجتماعية تحمل أبعاداً جمالية، توجه إلى متلقي هو نتاج للعلاقات الاجتماعية المتغيرة ولذلك يعتمد فهم النص والاستجابة له على سياقاته التاريخية الاجتماعية، فالتوجه الاجتماعي والنفسي يؤثر في المتلقي ومن ثم في وعيه التفسيري للنص، لذا، وجب تحري مرجعياته ومؤثراته الداخلية والخارجية والوقوف على خصوصية هذا النص، الذي جاء فريداً في طرحه وأفكاره متمرداً رافضاً للأوضاع الاجتماعية ولهيمنة السلطة التي بسطت يدها على الأثر الأدبي ومنتجة للمثقف في عصر التوحيدي ظل خاضعاً لقوة السلطان، يعمل على ترجمة مشاريعه وتقديمها للمتلقي في أحسن وجه يمكن تقبله، في حين نجد المثقف المستقل عن المؤسسة السياسية والخارج عن سلطة الديوان يعاني المنقصة والتهميش.

3: ملامح النص التوحيدي والأسلوب النثري

يعد أبو حيان التوحيدي من طليعة نقاد القرن الرابع الهجري لامتلاكه ناصية القول واضطلاعه على أسرار اللغة، هذا الرجل الذي شغل العامة والخاصة في زمانه بأرائه وغزارة إنتاجه، وأرق نقاد القرن العشرين لمعاصرتة أفكارهم ومجاراته لمقولاتهم التي يزعمون أنها لم تنبثق إلا من صلب الحداثة، الأمر الذي جعله مناطاً للبحث والدراسة والاهتمام من قبل النقاد والباحثين القدامى منهم والمحدثين، لما يتميز به من خصائص أسلوبية فريدة فهو، كما يقول

"ياقوت الحموي" فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة لم يترك علما إلا وقد جعل له منه نصيبا بمقدار، فكتب في اللغة والبلاغة وبحث في أسرار النفس والتصوف وناقش وناظر في قضايا النقد والإبداع الأدبي فتمخض على إثر ذلك ذوق فني سليم وأسلوب لغوي متميز.

أبو حيان من بين قلة " من الكتاب العرب الذين، تربت فيهم حساسية أدبية مبكرة أفرزت نزعة انتقائية ومنهجا جديا لدور الكتابة الأدبية، وبعمق وحساسية مفرطة تعامل مع "اللفظة" باعتبارها خلية حية "تنمو" وتتطور وتتقبل وترسل وانتج هذا الفهم والتعامل تقنية تعبيرية خاصة به.¹⁵

وتركيز التوحيدي على اللفظة لم يلبغ العناية بالمعنى، ذلك أن اللغة عبارة عن مركب عضوي تنمو وتتكاثر، كما أنها تمثل جوهر الأدبية والقالب الفني الذي تفرغ فيه الدلالات والمعاني، فهذا الوعي باللغة مثل مفتاحا لمعالجة النصوص وفتح حقولا كثيرة للتأويل وتوالد المعاني في ذهن القارئ، الذي سيعيد بناء النص وفق مفاهيم جديدة، لذا فقد أولى التوحيدي عناية خاصة بعناصر الكتابة الأدبية فهو يرى بأن اللسان " مركّب من اللفظ اللغويّ والصوّغ الطّباعي والتأليف الصناعيّ، والاستعمال الاصطلاحيّ (...) وبهذا البّون يقع التباين ويتسّع التأويل ويجول الذّهن وتتمطّى الدعوى، ويُفزعُ إلى البرهان، ويُبرأ من الشبهة، ويُعتر بما أشبه الحجّة وليس بحجّة، فاحذر هذا النعت وروادفّه، و اتق هذا الحكم وقوائمه، ولا تعشق اللفظ دون المعنى ولا تهو المعنى دون اللفظ"¹⁶

يشير التوحيدي أثناء تحديده لعناصر الكتابة الأدبية، إلى قضيتين نقديتين لطالما شغلت النقاد القدامى والمحدثين وهما، "قضية الطبع والصنعة" و "قضية اللفظ والمعنى" فمن خلال حديثه هذا يتبين أن التوحيدي جمع بينهما ورأى بأن الكلام لا يتم إلا بهما معا، إلى جانب عنصري حسن التأليف والدربة والاستعمال بحيث أن الإبداع الأدبي لا يتم إلا بتضافر هذه العناصر كلها، لأن التحيز لعنصر وتقديم آخر يذهب بالكلام إلى التباين والاختلاف ويوقعه في الخطأ والشبهة مما يضطره للبحث عن الدليل والحجة، ما جعل التوحيدي يحذر من التزويق اللفظي على حساب المعنى، لأن المعنى يخدم اللفظ واللفظ يخدم المعنى، كما أن طبع الكلام وصنعته عنصرين متكاملين يؤديان وظيفة بلاغية تثير انتباه السامع وإعجاب المتلقي.

وكما أشرنا سابقا بأن القرن الرابع الهجري يعد أزهى قرون العربية على الإطلاق نظرا لتحليه بميزات أدبية ونقدية ومن قبل ذلك فلسفية ثقافية وسياسية، تجلت في تفكيره فظهرت السجلات الفكرية والمسامرات والمناظرات التي، صبغت الأسلوب الأدبي الفني بصبغة عقلية تميل إلى الجدل وتكشف عن امتزاجها بالعناصر الثقافية الفلسفية، وهذه الصبغة نجدها

حاضرة بقوة في أسلوب التوحيدي فكثيرا ما كان يخوض في المسائل العقلية والفلسفية التي، تتطلب توظيف أساليب الحوار والحجاج والجدل، والدليل على ذلك ما جاء في كتبه من كثرة التساؤل واستعمال المصطلحات العلمية والفلسفية، غير أن المميز في أسلوب التوحيدي أنه لم يتقيد بالصرامة والغموض الذي، طغى على أساليب الفلاسفة وإنما اعتمد في طريقته على الوضوح والبساطة، لأن التوحيدي لم يكن يكتب لقارئ بعينه فأغلب جمهوره ومتلقيه من العامة، لذلك نجده في كتاباته يراعي مستويات فهم القراء.

-مميزات الكتابة عند أبي حيان التوحيدي

على الرغم من تأثر أبي حيان بشيوخه وأساتذته، إلا أنه تمكن من ابتداع طريقة خاصة به يقول " آدم متر " في كتابه الحضارة الإسلامية عن فضل طريقة التوحيدي في الكتابة، " أنه كان عالما بدقائق الأسلوب الرائع، وقادرا عليه غير أننا نكاد لا نلاحظ في أسلوبه ذلك التكلف الذي نجده عند غيره من الأدباء، ولم يكتب في النثر العربي بعد أبي حيان ما هو أبسط وأقوى وأشد تعبيراً عن مزاج صاحبه مما كتب أبو حيان " ¹⁷

وهناك من تحدث عن أسلوب التوحيدي فوصفه بأنه جاحظي المذهب لأنه كتب على طريقته وحاكى أسلوبه ونزعاته في الكتابة، خاصة وأن عصر التوحيدي هو عصر التأليف والتدوين بلا منازع، حيث عرف بجودة نصوصه وصياغتها الفنية لاسيما فن كتابة الرسائل، مما ساهم في ارتقاء النثر العربي " وقد اتسم النثر في القرن الرابع الهجري بصفات وخصائص فنية، من بينها التزام السجع في جميع الرسائل وتضمين أحسن الشعر ومختار الأمثال، حتى أننا نجد من الكتاب من نقل إلى النثر محاسن الشعر من الاستعارة والتشبيه والخيال. " ¹⁸

وبما أن التوحيدي رجل عصره فقد التصقت به هذه السمات، غير أنه حاول أن يتحرر من السجع المتكلف إلى فن قريب منه ويشبهه هو الأزواج، فالتوحيدي في أسلوبه ينشد البساطة والوضوح ويمقت الصنعة والتكلف، لذا أراد أن " يرسم معالم الكتابة المسؤولة أمام جيله الواهم المنساق وراء صناعة المقامات الفارغة، أو المأخوذ بالرسائل الديوانية المنمقة بشتى الأساليب الزخرفية المكدسة بلا ذوق ولا إتقان. " ¹⁹

وقد انعكست شخصية التوحيدي المتمردة على أسلوب كتابته، فكما يقول بوفون "الأسلوب هو الرجل نفسه " بحيث نلمس قلق النص الذي، هو في الحقيقة مرآة تعكس دواخل الكاتب ونزاعاته وتساؤلاته " فأسلوب التوحيدي البنائي يرتبط ارتباطا وثيقا بشخصيته المتمردة وانفعاله الدائم ولد ديناميكية لغوية يحس القارئ بحرارتها وإشراقها، من أول مصافحة

لكتابات التوحيدي (...) فشاع في أسلوبه الازدواج والتناقض الوهمي والصراع الداخلي، وكان العلامة المضيئة في كل واجهاته اللفظية وكتاب الإمتاع والمؤانسة يحفل بهذا النمط التعبيري الذي يتمرد على السجع ويحافظ على توازن الجملة.²⁰

اختلف التوحيدي عن معاصريه في علاقته بالكتابة، فهو لم يكن ممن ينجر وراء الأفكار والحقائق المستهلكة وإنما كان دائم البحث عن الغريب وعن الفريد، الذي لم يتفطن له ممن سبقه ولا سلكه أحد لصعوبة مداخله وخطورة مخارجه، فالتوحيدي اختار المغامرة والغوص في أغوار الكتابة باحثاً عن الأجدى أو بالأحرى باحثاً عن الذات، فلحظة الكتابة عنده مجردة من زمكانيتها متجاوزة للمألوف فهي لحظة حميمية تذهب به نحو الاستقلال والتمرد وهذا ما مثل فارقا في أسلوب كتابته، بحيث نجد في "أسئلته أسلوب أدبي فني رائع يمتاز حتى عن أسلوب مسكويه الفلسفي الذي يحوطه الغموض (...) إن أبا حيان كثير الشكوى من الزمان والسكان، والشكوى من المجتدين قد تثير في النفس عاطفة الحنو والرحمة، وقد تثير عاطفة التقزز والاشمئزاز وهي في ذلك كله تختلف باختلاف الشكل وأساليب الاستجداء"²¹

كل هذه العوامل النفسية التي أفرزتها التجارب الحياتية، طغت على مادة التوحيدي وترجمت في كتاباته، الأمر الذي تمخض عنه نظرة أدبية فلسفية صوفية تعبر عن معاشته للأوضاع الاجتماعية وتأثره بها، مما نتج عنه تعدد في الصباغات الفنية، فللتوحيدي "مقدرة بليغة في التنوع من أساليبه معتمداً في ذلك، التأمل الداخلي للعلاقات القائمة بين أشكال التعبير ونوازع الفكر وصيغ التعبير كما يتصرف بحرية، في جملة وعباراته من تقديم وتأخير للفعل والفاعل والمفعول."²²

4: القراءة الحداثية والفهم المعاصر لنص التوحيدي

مثلت قضية دراسة التراث وفق التوجهات النقدية الجديدة قضية حساسة، لاسيما أنها تخضع إلى معالجة نص عريق لطالما مثل بؤرة الإبداع الثقافي للأمة العربية، فالتراث مقدس عند مولعيه وأتباعه خاصة في ظل التصادمات الحضارية والفكرية التي انعكست بظلالها على الساحة الثقافية والنقدية فأخذ كل توجه ينتصر لمنطلقاته ومرجعياته.

فمع ظهور الحداثة ونظرياتها زاد التعصب لهذا الموروث الذي يمثل في نظر البعض نصاً ذو خصوصية تاريخية وقداسة لا يجوز المساس بها، إلا أن حقيقة هذه الحداثة لم تكن تمثل جديداً بالنسبة لبعض المفكرين القدماء، لأنهم تفتنوا لقضاياها في وقت مبكر وإنما اختلفت التسميات بحسب التغيرات الطارئة، التي فرضها العصر والمنجز الحداثي، فالنص لا

ينمو إلا في إطار سياق داخلي أو خارجي ساهمت عوامل ومؤثرات عديدة في تشكيله، فالنص الذي كتب في القرن الرابع الهجري ليس هو نفس النص الذي كتب في القرن العشرين فلكل عصر ووافده ومميزاته الثقافية التي ستعكس لا ريب على الإنتاج الأدبي إلا أن القارئ مهما كان منفصلا عن مقروءه في زمانه ومكانه سيعود ليتصل به ويتماها مع كينونته.

إن قراءة التراث النقدي "شأنها شأن أية قراءة أخرى، لا يمكن أن تتقدم إلا إذا انقسم وعي القارئ على نفسه، في مرحلة من مراحل القراءة وأصبح وعيا مزدوجا ذاتا وموضوعا في آن بحيث يتمكن هذا الوعي من تأمل نفسه، في علاقته بمعطيات التراث المقروء وكيفية إدراكه لها وسيطرته عليها، فيكتمل فعل التحقق الذي تكتمل به سلامة القراءة في يقين هذا القارئ ويدرك أن جهاز قراءته قد كشف في النص الذي قرأ، عن ذي دلالة في السياق التاريخي لهذا النص وأفقه الزممي الخاص."²³

وقد مثل النص الذي كتبه أبو حيان التوحيدي، أحد نصوص التراث النقدي والبلاغي التي وجدت لنفسها مكانة في ميزان النقد والأدب، لما لها من قيمة فنية ومعرفية ونحن في بحثنا هذا نروم مقارنة النص التوحيدي مقارنة نقدية معاصرة، أي كيف تم تلقي هذا النص من قبل القارئ المعاصر؟ هل تمكن من فك شفراته وكشف خصوصياته في الكتابة؟ هل استجاب القارئ لمقصدية الكاتب أم أنه عمل على خلق فهم خاص به؟ وقد أثار هذا النص جدلا واسعا سواء من قبل قراء عصره الذين رفضوا الاستجابة لطرحه وأفكاره بحكم استقلاليتهم في الكتابة وثورته على المألوف مما جعله نصا مبعدا عن العناية والاهتمام، ليتم إنصافه مع القارئ المعاصر الذي عكف على هذا النص يبحث عن أسرار تميزه وفرادته، ويقف عند شخصية هذا الكاتب الوجودي القومي المتمرد على تقاليد عصره.

يمثل التوحيدي في ثقافة القرن الرابع الهجري طفرة فكرية متميزة، لتحليه بمقومات خاصة نادرا ما تتوفر عند معاصريه، الأمر الذي جعله محط أنظار القراء والدارسين فمن بين من وقف عند آثاره متأملا الناقد "أحمد أمين" في مقدمة تحقيقه لكتاب الإمتاع والمؤانسة بحيث كان من بين الدارسين الأوائل الذين عرضوا لحياة التوحيدي، وقد اعتمد في دراسته هذه على تتبع التاريخي لمراحل حياته فجعل منه النموذج الحي الذي ينقل لنا الحياة الاجتماعية والثقافية في العصر البوهمي.

وقد كثرت الدراسات المعاصرة للنص التوحيدي فتباينت في طرائق معالجتها لهذا النص فهناك من اعتمد المنهج التاريخي، ومنهم من توجه نحو التحليل النفسي وآخرون اعتمدوا الجانب الجمالي والفلسفي والبنوي وصولا إلى نظريات القراءة وما بعد الحداثة... وهي مناهج

ومقاربات مهما اختلفت تظل تندرج في خانة التلقي والعمل على إثرائه، وإنما يكمن الفرق في نوع الاستجابة ومستويات القراءة والتحليل، ومن بين الدارسين الذين اهتموا بهذا النص نجد عبد الرزاق محي الدين، زكي مبارك، إبراهيم الكيلاني، زكريا إبراهيم، محمد المسعودي، وأمانى فؤاد وعبد الأمير الأعسم وحسين الصديق وأحمد محمد الحوفي وغيرهم كثير.

والواقع²⁴ أن نص التوحيدي ينطوي على غوايته الخاصة التي تجتذب إليها المناهج الأحدث المغرمة بالتحليل اللغوي متعدد الأبعاد، فهو نص كتابي بالمعنى الذي يناقض الشفاهية وهو نص الكتابة بالمعنى الذي يناقض نص القراءة في مصطلح رولان بارت (...). و هو نص يتضمن مستويات متعددة من الخطاب، تخاليل المقاربات الأحدث بعلاقات الحوار على مستويات التشكل أو الإرسال في موازاة مستويات التلقي والاستقبال.²⁴

الأمر الذي جعله حقلاً خصباً لتطبيق النظريات الحديثة والمعاصرة التي تطمح إلى الكشف عن مكامن الجودة في النصوص التراثية القديمة، وإعادة بعثها للحياة من خلال استنطاق ظواهرها الثقافية المختلفة، وتعرية أنساقها المخبوءة والمضمرّة ومحاوره ما تعمّدت السكوت عنه.

لذا فالنص التوحيدي يعد أنسب نص تراثي للخوض في مغامرة البحث عن الجودة وكسر القيود، لثراء هذا النص ومرونته وقدرته على مسابرة مختلف التطورات الحاصلة في الساحة الأدبية فهو نص على الرغم من قدم إنتاجه، إلا أنه أعطى للقارئ فرصة لمشاركته هذا الأثر الفني، وكأنه يريد امتحان قدراته ويعمل على تحفيزه من أجل إنتاج قارئ أو متلقي ذو ميزات وميول خاصة وذلك من خلال توقعاته وأحكامه النقدية " فالنص الأدبي متعدد الجوانب في حوار مع المتلقي الذي يسعى إلى امتلاكه كلياً، فيطلب المتعة كما يطلب المعرفة والمعاني وهذا ما يقدمه النص من خلال مكوناته، فلغة النص الأدبي تزخر بالقيم الجمالية والمعرفية والنص لا يتحقق إلا بالاتصال مع متلقيه."²⁵

وقد نبه التوحيدي إلى صفات ودور كل من المبدع والمتلقي، فالمبدع عنده لابد من أن يتحلى بثقافة واسعة حتى يستطيع إنتاج نص ثري بمقومات ثقافية تصمد مع متغيرات الزمان والمكان، وأن يكون ذو نباهة ومقدرة فنية تمكنه من شحن النص وتقوية تأثيره على المتلقي واستمالاته إليه، هذا المتلقي الذي لا يقل فعالية عن المبدع بحيث أضحى شريكاً له في إنتاج العمل الإبداعي.

عرض التوحيدي في نصوصه المختلفة إلى قضايا وظواهر ثقافية اجتماعية وسياسية حساسة لفتت انتباه القارئ المعاصر، الذي ما فتئ يبحث عن الخلفيات التي أثرت في إنتاج هذا النص ومعرفة الظروف المحيطة به، فأخذ ينقب عن معاني ترضي ذائقته الفنية وتوجهه النقدي والثقافي وذلك من خلال قراءتها قراءة تتوافق مع ما تمخض في الفهم المعاصر وما تجسد في المنجز الحداثي من مفاهيم، فنظرة التوحيدي إلى هذه القضايا وتحليله لها تميزت ببعد خاص ورؤية عميقة تجاوزت بنضجها الفكري الحيز الزمني للعصر لتعبر عن الماضي والحاضر والمستقبل في آن.

فالتوحيدي " كان تنويرياً بروح الثورة والتغير الاجتماعي على الأوضاع الفاسدة، فأوضح ما هو حسن وغفل عنه الناس وبرز ما هو قبيح ولم يظهر للناس، فكانت بذلك حالة من التجديد الفكري وانتباه المتلقي المثقف إليه، والمقصود بالمتلقي النوعية والذي له معاناة التوحيدي وليس المثقف الذي يستهلك معرفة لا غير بل المنتج للمعرفة وهي نخبة النخبة (...) ففي الإمتاع والمؤانسة يفاجئك بذلك الاختصار المصوغ ببنية جمالية تشعر حينها بأنك أمام فنان يحسن صنعته والاختيار عنده مصير وليس مجازفة ومسؤولية معرفية.²⁶

والمقصود بالاختيار حسن تقفي الأثر، فالتوحيدي قبل أن يكون مبدعاً كان قارئاً حين اختار من النصوص أجودها ووقف عند المهمم الحسن، الذي لم تفهمه ولم تلحظه العامة فعمل على توضيحه وتفسيره وشرحه ونبه إلى القبيح ودعا إلى تجنبه، لذلك فالمتلقي عنده لا بد أن يتوفر على إمكانات خاصة حتى يستطيع أن ينقد الأعمال الأدبية بإتقان وبصورة مبدعة ويعمل على إثرائها وليس الحط من شأنها، كما أن المتلقي عنده لا بد أن يكون منتجاً للمعرفة ولل فكرة ولا يكتفي بالاستهلاك فقط.

غير أن التوحيدي في دعوته هذه لم يتنكر لفضل سابقه في تتبع منابع الأفكار الجيدة الحسنة " وقد قيل: تجارب المتقدمين مرايا المتأخرين، كما يبصر فيها ما كان، يتبصر بها فيما سيكون، (...) وليس من حادثة ماضية إلا وهي تعرفك الخطأ والصواب منها لتكون على أهبة في أخذك وتركك، وإقدامك ونكولك، وقبضك وبسطك " ²⁷

من هنا نلاحظ اعتزاز التوحيدي وتمسكه بتراثه، فهو كما يقول مرآة عاكسة لجهود القدماء تعلمك ما يجب أن تأخذ وتختار وتنهك لما يجب تركه والدليل على ذلك، أنه اعتمد على تراث أمتة كمنطلق لبناء قاعدة أساسية نحو الاختلاف فلكل فكر مرجعياته التي تغذيه وتعمل على تأصيله، وقد كان التوحيدي ملماً بثقافة عصره ومستوعباً لثقافة السابقين " وهذه

سمة تفرد بها أبو حيان التوحيدي، فعرفه النقاد بها، وأصبح هو مسجل هذا القرن وناقل ثقافته إلى جميع العصور التالية²⁸

يقول التوحيدي في المقابسة الحادية والتسعون " قد مرت في هذه المقابسة، التي تقدمت فنون من الحكمة وأنواع من القول، ليس لي من جميعها إلا حظ الرواية عن هؤلاء الشيوخ وإن كنت قد استنفدت الطاقة في تنقيتها وتوخي الحق فيها، بزيادة يسيرة لا تصح إلا بها أو نقص خفي لا يبالي به، وأن أسألك أن تأخذ منها ما وافقك، وتدع على ما بار عليك، ولأجل ما سلف من القول في المسائل وأحببت أن أحكي حدود احصلناها على مر الزمان بعضها أخذ من أفواه العلماء، وبعضها لقط من بطون الكتب بعد أن عرض الجميع على من يوثق بصناعته، ويرجع إلى نقده واختياره." ²⁹

والتوحيدي على الرغم من اعتزازه هذا وفضل التراث عليه، إلا أنه لا يدعوا إلى الانغلاق عليه والاكْتفاء به وإنما دعا إلى التحرر في الفكر، وأنه على القارئ أن يحسن انتقاء معارفه وقد طبق هذه الدعوة على نفسه أولاً، حينما عاد إلى مختلف منابع الفكر وكتب الفلاسفة فهل منها وأخذ ما رآه نافعا ويستحق التأمل والقراءة، وقد أصبحت قضية توظيف التراث وتنقيحه وإعادة النظر فيه من القضايا المعاصرة التي شغلت كتاب العصر الحديث، فأرأوا بأنه يجب أن ننزع عن التراث هالة القداسة وأن ندرسه على أنها نصوص تحتمل الصواب كما تحتمل الخطأ.

ويعلق " عبد المجيد الشرفي " على موقف أبي حيان من التراث فيقول: " ولعل التوحيدي لم يدع قارئه إلى هذه الحرية في الاختيار، إلا أنه هو نفسه تخلص من سلطان الماضي وربقة التقليد فلم يكن حجاب المعاصرة يحول بينه وبين الاعتراف بفضل أعلام عصره"³⁰

أما " علي دب " أثناء قراءته لكتابات التوحيدي فيرى أن " التقهقر القومي يبدأ من التنكر للمبادئ والقيم التي أفرزتها الأمة وميزت شخصيتها عبر تاريخها الطويل، ويكون الوعي التاريخي بالماضي العربي مرتكز التوحيدي وجذوته العاطفية في زمن التفسخ والتحلل والانكماش، فهو يصر على التمثيل الدائم بأمجاد النهضة، كي يكون التراث ذكرى حية وحلقة من حلقات الحاضر، ونظرة التوحيدي للاستفادة من التراث وتاريخ الأمة تعد متقدمة بل معاصرة الطرح والانتقاء"³¹

رأى " علي دب " كقارئ ومتلقي بأن ارتباط التوحيدي بتراثه، إنما هو نوع من القومية التاريخية وقد ظهرت مثل هذه النظريات والتوجهات والمقومات التي، تحكم علاقة الأفراد بالمجتمع وبالأمّة في أواخر القرن التاسع عشر، مما يسمح لنا أن نصنف النص التوحيدي ضمن خانة هذه النصوص المعاصرة، فمعالجته لهذه القضايا وفق الطرح المعاصر يعبر عن فكر ناضج تميز به التوحيدي.

ويؤكد ذلك حينما قال أن التوحيدي " يسبق النظرية الألمانية القائلة بأن اللغة مقوم أساسي لتوحيد الأمّة، يرى " هيوردر " صاحب كتاب آراء في تكوين فلسفة التاريخ البشري، أن الطبيعة فرقت الشعوب باللغة فقط، فاللغة وعاء لحفظ أفكار الشعب ونقلها، ولغة كل أمة هي روحها وأهم المزايا العبقريّة الشعب وأصالته"³²

إن فضل السبق الذي أشار إليه " علي دب " أمر بديهي، لاسيما مع مفكر مثل التوحيدي اتخذ من اللغة ركيزة ودعامة أساسية في بناء أفكاره والدفاع عنها، فلطالما اهتمت العرب باللغة وبأساليبها في الجاهلية مثلا، كانت القبائل تختار سيدها وزعيمها لما يتصف به من بلاغة وطلاقة لسان وحسن تصرف في اللغة، فهي إلى جانب كونها أداة للتعبير والتواصل مثلت أحد رموز الثقافة والهوية التي تعكس أصالة وحضارة كل أمة.

تطرق التوحيدي في نصوصه إلى قضايا نقدية وفكرية، تجاري ما جاء في النظريات النقدية المعاصرة، فكره التقدمي ونظرته العميقة لما يدور حوله من أحداث ورهانات ثقافية اجتماعية وسياسية مكنه من الخروج بتأويلات حديثة، قد لا نجد لها مسميات ومعايير تفصيلية واضحة، إلا أن الفكرة العامة نجدها متبلورة بين ثنايا النص التوحيدي، فزعة التساؤل والتشاؤم والقلق والتمرد والشك المتجذرة في النصوص التوحيدية كلها ظواهر ثقافية معاصرة اتخذها كتاب العصر الحديث تيمة من تيمات الإبداع.

" فإذا كان القلق عاملا نفسانيا عند أبي حيان التوحيدي، فإنه أضحي اليوم قلق الفكرة واللغة والأسلوب، الذي فقد إنسيابيته وأنساقه التواصلية، لتجتاحه فوضى الفراغات والتقطيعات وتفكك الألفاظ نفسها إلى حروف، مما جعل المتلقي يواجه نصا أثقلته الثقب والفراغات، ومما جعل القراءة ذاتها تتحول إلى إعادة ترتيب أجزاء النص بالتوصيل والربط وذلك من خلال قراءة البياضات والفراغات الدلالية، ومن ثم إعادة قراءة الأثر في صورته الأكثر احتمالية والأقرب إلى مقصدية الكاتب"³³

فقارئ النص التوحيدي قبل أن يتوغل في الأثر، لابد أن يقف برهة ليتعرف على صاحب الأثر، لأن كل ما يكتبه أبي حيان انعكاس لدواخله ولمعاناته، كما أنه لابد من مسافة جمالية فاصلة بين كتابة النص وأفق توقع القارئ وميلاد النص الجديد، ويمكن الحصول على هذه المسافة من خلال استقراء ردود أفعال القراء على الأثر، أي من الأحكام النقدية التي يطلقونها عليه والآثار الأدبية الجيدة هي تلك التي تمنى انتظار الجمهور بالخيبة، إذ الآثار الأخرى التي ترضي آفاق انتظارها وتلبي رغبات قرائها المعاصرين، هي آثار عادية جداً لأنها نماذج تعود عليها القراء وقد " ذكر التوحيدي عدداً من الألفاظ أثناء تعليقه على بعض النصوص، مثل اللذة والمنفعة والأريحية والطرب والإثارة والفائدة والفهم، وهي ألفاظ تدل على التأثيرات التي تظهر على المتلقي بعد سماعه للنص الأدبي." ³⁴

كما نجد أن التوحيدي نفسه يعرض إلى آراء معاصريه فيه، فيقول في المقابسات "ورأيت أن أخلاقي بتحصيلي على أي وجه أشد، من أخلاقي بتقصير يمر لي في جملة ذلك، فعرضت له على علم مني بقلة السلامة، على أن من انحنى عليّ بحده، وكشّر لي عن نابه، وجعل صوابي خطأً، وخطأي فيه عاراً، احتملتُ وصبرتُ وتغافلْتُ وعذرتُ" ³⁵

في هذا المقطع انعكست خيبة القارئ واصطدامه بالعمل الأدبي على نفسية التوحيدي، الذي صدم هو الآخر بردة فعل قارئه، الذي يشاركه زمانه وظروفه إلا أنه اختلف معه في الفهم، وثقة التوحيدي بنفسه وتميز أدبه جعلته يصفح عما قاله معاصروه من العلماء والأدباء، فعندما تحدث عنهم أنصفهم وذكر فضلهم بحيث يقول: "إذا كنت في جميع ذلك راوية عن أعلام عصري وسادة زماني، فأنا أفدي أعراضهم بعرضي، وأقي أنفسهم بنفسي، وأناضل دونهم بلساني وقلمي، ونظمي ونثري." ³⁶

وهذا ما ميز التوحيدي عن أصحابه من كتاب القرن الرابع الهجري، روحه العلمية التي كانت تطمح إلى الوصول إلى كل ما هو مدهش وغرائبي وغير مألوف، في حين كان البعض منهم يلهث وراء المستهلك من الأفكار، إلا أن التوحيدي لم يكن منصفاً دائماً فيما يخص أعلام عصره وخير مثال على ذلك حديثه عن صديقه مسكويه، عندما وصفه بأقذع الصفات وتركيزه على المساوي دون ذكر للمحسن، على الرغم من مكانة الرجل الفكرية وتفوقه العلمي والعشرة الطويلة التي دامت بينهما، ولعل منزلة مسكويه السياسية هي ما جعلت التوحيدي يثور عليه ويعتمد ذلك الوصف، فقد كان لسان التوحيدي حاداً لاسيما في حديثه عن السلطة والمسؤولين، وإذا أردنا أن نقف عند كل قضية معاصرة تناولها النص التوحيدي، فإن البحث

لا يتسع لكل ذلك وإنما نحاول أن نشير إلى أهم المقتطفات حتى يتسنى للقارئ أن يأخذ فكرة عامة عن الموضوع.

ومن بين القضايا التي لم نستطع تجاوزها لأهميتها قضية تداخل الأجناس الأدبية، التي أضحت قضية معاصرة أسالت الكثير من الحبر وسط الباحثين والنقاد، هذه الظاهرة التي عرفت بأنها تندرج ضمن الفكر المعاصر لما شاع في القديم، من استقلالية الأجناس الأدبية وصفائها إلا أن المتأمل والمتتبع لتطور الفنون والظواهر الأدبية يلحظ وجود هذه السمة منذ فترة متقدمة، وقد أشار التوحيدي إلى هذه القضية في كتاباته ومصنفاته المتعددة وذلك ضمن حديثه عن أفضلية "النظم والنثر" هذه القضية التي أثارت هي الأخرى جدلاً كبيراً بين النقاد القدامى، وقد ذكر التوحيدي محاسن ومساوئ كل منهما، ورأى أن أحسن الكلام ما جمع بين جميل اللفظ والمعنى ووازن بين الشكل والمضمون إذ يقول في المقابسة الستون "ففي النثر ظل من النظم ولولا ذلك ما خف ولا حلا، ولا طاب ولا تحلا، وفي النظم ظل من النثر، ولولا ذلك ما تميزت أشكاله، ولا عذبت موارده ومصادره، ولا اختلفت بحوره وطرائقه، ولا اختلفت وصائله وعلائقه" ³⁷

وهنا نجد أن التوحيدي قد جمع بين النظم والنثر ورأى أنهما فنين أدبيين متكاملين يجتمعان في خصائص وبيبتعدان في أخرى إلا أن لكل منهما بلاغته الخاصة وأسلوبه وطابعه المتميز، وفي الوقت ذاته نجده يدعو إلى كسر قيود الالتزام بنمط واحد من الكتابة لأن الفنون بطبعها تتداخل بغض النظر عن طبيعتها وخصائصها، ثم إن "النثر إذا أخذ خصائص الشعر أصبح أقدر منه على الوصف لخلوه من قيد الوزن والقافية بحيث يرى القارئ من جمال الصنعة ودقة الأسلوب أجمل مما يراه في الشعر متفرداً" ³⁸ وقد تحدث الكتاب المعاصرون عن إمكانية ولزوم تداخل وتفاعل الأنواع الأدبية، فأدونيس مثلاً حينما أراد التنظير لقصيدة النثر والنثر الشعري، نوه إلى أن اللغة النثرية قادرة على استقطاب الخصائص الشعرية بعيداً عن التقاليد المتواترة، فهذا التداخل أضفى خاصية جمالية تزيد من ثراء الأسلوب.

في الأخير يمكننا القول بأن أفكار التوحيدي المستقبلية وشخصيته الفذة الفريدة، عملت على إثراء رصيد الفكر العربي القديم والمعاصر، فأثاره الأدبية بقيت شاهداً على نبوغ هذا الرجل الذي لم ينل الحظوة والمكانة التي يستحق إلا في العصر الحديث، يقول جابر عصفور مؤكداً "فكتابة التوحيدي إنجاز أصيل نعتز به لأن منها ما يتجاوب وهمومنا العصرية، ويضيف إلى أسئلتنا نحو المستقبل ويصلنا بأبي حيان ويصله بنا، منفتحاً لا منطوياً على شهوة التغيير، وكاتباً يؤسس لإبداع الكتابة ومتجرداً يغذي تمردنا على الثابت الجامد، وميراث أبي

حيان سؤال مفتوح على عصره الماضي وعصرنا الآتي، فيه ما يمكن أن ينتقل بالإنسان من قيد التقليد إلى فاعلية الاجتهاد ومن ذلك الخنوع إلى توثب التمرد"³⁹

خاتمة :

اشتغل هذا البحث على نصوص "أبي حيان التوحيدي" والتي مثلت أحد مصادر التراث العربي القديم لقيمتها المعرفية ومزاياها المتعددة ومكانتها بين رفوف المكتبة العربية، وقد حاولنا الإجابة عن مجموعة من التساؤلات التي صيغت ضمن إشكالية كبرى محورها قراءة النص التوحيدي قراءة معاصرة، بحيث خضع لتلقي هذا النص إلى آراء ومواقف متباينة تختلف باختلاف استعداد الجمهور ثقافيا لتلقي آثار النص الأدبي، وهذا الاستعداد قد يكون مشترك بين المبدع ومتلقيه لذا فإن من الأدباء من يسعى إلى التجاوب مع أفق الانتظار، فيبدع آثارا تقابل بالاستحسان وتستهلك سريعا، ومنهم من يخرج عن المؤلف وعن أفق التوقع وهذا ما اختاره أبو حيان التوحيدي، فيحدث إذا ما صادفه التأويل تحولا تاريخيا وطفرة في الإبداع وفي التدوق وهذا شأن الآثار الأدبية الفريدة المميزة الخالدة، ولما كانت تفاصيل البحث كثيرة ومتعددة فإننا سنقتصر على النتائج الهامة والأساسية :

- لقد بين هذا البحث مدى قدرة النص التراثي على استيعاب المناهج والمقاربات النقدية الحديثة والمعاصرة، فتمثله لنظرية القراءة والتلقي عمل على كشف أبعاد جديدة لهذا النص لطالما كانت غامضة بالنسبة للقارئ العربي.

- كان مفهوم التلقي مفهوما ضبابيا لاختلاف فهم الباحثين له ولتعدد تعاريفه ومصطلحاته، لذا فقد حاول هذا البحث الوقوف عند أهم مفاهيمه مشيرا إلى أن جمالية التلقي نظرية أساسها الفهم والإفهام وليست القراءة فحسب، كما أن نظرية التلقي على الرغم من أصولها الغربية إلا أن لها حضورا مكثفا في التراث العربي القديم.

- واكب النقاد العرب المحدثين نظريات التلقي وسعوا إلى فهمها ونقدها، وتأصيل أبحاث ودراسات تنظر وتطبق لها، إلا أن فعل النقل والترجمة ومحاولة قراءة التراث وفق هذه التوجهات أوقعهم في أزمة مصطلحية للتلقي ما جعل هذا المفهوم مفقودا وغائبا، وغير ذلك من الثغرات المعرفية والأخطاء المنهجية.

- أن النص التوحيدي من بين المدونات التراثية التي كان لها وقع كبير على المتلقين على اختلاف زمانهم، لما تميز به من تفرد في علاقته بالقراء ولما يحتويه من قضايا فكرية نقدية وإنسانية تشغل الفرد والمجتمع.

- تميز القرن الرابع الهجري بحركة علمية نشيطة وبمظاهر ثقافية عديدة ساهمت عوامل مختلفة على انبثاقها وازدهارها، كانتشار مجالس العلم وامتهان حرفة الوراقة.

- تحلى التوحيدي بثقافة موسوعية أفادت من مختلف صنوف العلم والمعرفة، ويعود الفضل في ذلك إلى أساتذته ومعلميه أمثال أبو سعيد السيرافي والروماني وأبو سليمان السجستاني وغيرهم.

- تميز أسلوب التوحيدي بالبساطة والوضوح وابتعد عن التكلف والغموض، كما أولى عناية خاصة بعناصر الكتابة الأدبية، فاهتم بالتركيب والصيغ اللغوية الدقيقة والمحكمة.

- مثل النص التوحيدي حقلا خصبا لتطبيق النظريات الحديثة والمعاصرة، والتي تطمح إلى الكشف عن مكامن الجودة في النصوص التراثية القديمة وإعادة بعثها للحياة من خلال استنطاق ظواهرها الثقافية المختلفة.

الهوامش:

¹ مراد حسن فطوم، التلقي في النقد العربي - في القرن الرابع الهجري- منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دط، 2013، ص17.

² هانز روبرت يابوس، جمالية التلقي والتواصل الأدبي، الفكر العربي المعاصر، بيروت، عدد 38، ص101.

³ ينظر: فولفغانغ إيزر، فعل القراءة - نظرية جمالية التجاوب في الأدب- تر: حميد لحميداني، الجلالى الكدية، منشورات مكتبة المناهل، الدار البيضاء، 1995، ص55.

⁴ محمد عزام، نظرية التلقي، مجلة البيان الكويتية، العدد330، الكويت، يناير1998، ص37.

⁵ المرجع نفسه، ص38.

⁶ محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط1، 1999، ص48.

⁷ روبرت هولب، نظرية التلقي مقدمة نقدية، تر: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2000، ص23.

- ⁸ محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، ص 270.
- ⁹ ينظر: فولفغانغ إيزر، فعل القراءة -نظرية جمالية التجاوب في الأدب - ص20.
- ¹⁰ عبد اللطيف أرناؤوط، أبو حيان التوحيدي-بمناسبة ذكره الألفية، التراث العربي، العدد62، 1996، ص82.
- ¹¹ أبو حيان التوحيدي ومسكويه، الهوامل والشوامل، تحقيق ونشر أحمد أمين وأحمد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2001، ص10.
- ¹² سامية بوعجاجة، المفاهيم النقدية في كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، 2001، ص76.
- ¹³ ينظر: علي دب، الأديب والمفكر أبو حيان التوحيدي، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2، 1980، ص15.
- ¹⁴ آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تر: محمد عبد الهادي أبو رويده، دار الكتاب العربي، لبنان، ط5، ص147.
- ¹⁵ علي دب، المفكر أبو حيان التوحيدي، ص07.
- ¹⁶ أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه، أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، دط، 1953، ص10.
- ¹⁷ آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص465.
- ¹⁸ ينظر: زكي مبارك، النثر في القرن الرابع الهجري، مطبعة الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1934، ص106.
- ¹⁹ علي دب، المفكر أبو حيان التوحيدي، ص151.
- ²⁰ المرجع نفسه، ص154.
- ²¹ أبو حيان التوحيدي، الهوامل والشوامل، نشر وتحقيق أحمد أمين وحسن الصقر، ص37.
- ²² سامية بوعجاجة، المفاهيم النقدية في كتاب الإمتاع والمؤانسة، ص41.
- ²³ جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، مؤسسة عبال، اليونان، ط1، 1991، ص16.
- ²⁴ جابر عصفور، أبو حيان التوحيدي بعد ألف عام، مجلة فصول، الهيئة العامة للكتاب، العدد4، شتاء 1996، ص08.
- ²⁵ مراد حسن فطوم، التلقي في النقد العربي، ص217.
- ²⁶ عبد القادر العربي، بلاغة الخطاب وإبلاغية التأويل في محاورات أبي حيان التوحيدي، مجلة حوليات الآداب واللغات، العدد 04، مسيلة، الجزائر، 2014، ص15.
- ²⁷ أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد جاد، دار الغد لنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2009، ص426.
- ²⁸ أحمد عبد الهادي، أبو حيان التوحيدي -فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، دط، 1997، ص217.
- ²⁹ أبي حيان التوحيدي، المقابسات، تحقيق محمد توفيق حسين، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1970، ص355.
- ³⁰ عبد المجيد شرقي، حدائث أبي حيان، مجلة فصول، ص12.
- ³¹ علي دب، المفكر أبو حيان التوحيدي، ص137، ص138.
- ³² المرجع نفسه، ص141.

- ³³ عبد القادر عميش، الأدبية بين تراثية الفهم وحدائفة التأويل-مقاربة نقدية لمقول القول لدى أبي حيان التوحيدي- منشورات دارالأديب، وهران. دط، دت، ص105.
- ³⁴ بثينة سلمان محمد القضاة، أبو حيان التوحيدي ناقدا، رسالة ماجستير في اللغة العربية وأدائها، جامعة اليرموك، 2003، ص 229.
- ³⁵ أبي حيان التوحيدي، المقابسات، ص 356.
- ³⁶ المرجع نفسه، ص356، ص357.
- ³⁷ المرجع نفسه، ص240.
- ³⁸ ينظر: زكي مبارك، النثر في القرن الرابع هجري، ص107.
- ³⁹ جابر عصفور، أبو حيان التوحيدي بعد ألف عام، ص05، ص08.